كبيرا جدا ، وليس هناك ما يدل على ان صحف القسم الاول على استعداد لخوض حرب صحفية صليبية ضد اسرائيل فيما لو ابتلعت الاخيرة المزيد من الاراضي العربية ، بينما لم تتردد هذه الصحف في الصراخ بأعلى صوتها عندما اختطف الفدائيون بضع طائرات . ولكن اذا كان الفرق ليس كبيرا بين صحف القسمين في السياسة التحريرية ، فالفرق بين مراسل وآخر يجب الا يستهان بأهميته . وفي السنوات الاخيرة برز صحفيان غربيان لتجردهما من التحيز ولعمق تحليلهما ، هما ديفيد هيرست مراسل الغارديان في البلاد العربية ، وغافن يونغ مراسل الاوبزرفر ( ايضا في البلاد العربيـــة ) والتساؤل الذي يطرح نفسه الان : كيف تكون رئاسة تحرير صحيفة ما آخر من يستفيد من تحليلات واستنتاجات مراسلها الخاص ؟ والجواب على ذلك هو ان السير حسب الخط المرسوم مسبقا للصحيفة يفوق في الاهمية التأثيرات الناجمة عن تقارير مراسليها . ان هذا هو ليس مجـال الخوض في موارد الصحف الغربية من الاعلانات ، ولا في السلطة التي توجد بيد اصحاب الاسهم او اعضاء مجلس الادارة ممن قد تكون لهم مصالح خاصة تدفعهم الـى تأييـد اسرائيل ، ولكن لا بأس اذا أوردنا امثلة سريعة من تاريخ الصحافة البريطانية لتعزيز الرأي القائل بأن المصالح العليا لاية صحيفة هي التي ترسم لها الخط الذي تلتزم به ، وليس تقارير المراسلين ولا النزاهة والموضوعية .

اثناء الحرب الاهلية الامريكية ( ١٨٦١ ــ ١٨٦٥ ) كانت اغلبية الرأي العام في بريطانيا ، لاسباب اقتصادية ، تؤيد الجنوب الكونفيدرالي في حربه الانفصالية ضد الاتحاد الشمالي الذي كان ابراهام لنكولن يترأسه . وكانت التايمز اللندنية ( آنذاك ليس فقط اهم صحيفة في بريطانيا وانما اكبرها توزيعا ايضا ) تعطف بدورها على الجنوب وتؤيده في سياسته الانفصالية . ومع ان مراسل التايمز في امريكا كان هوارد رسل ، الرجل الذي اشتهر بأنه اول مراسل حربي في التاريخ . وكانت تقاريره الى صحيفته ( وكذلك رسائله الشخصية الى رئيس التحرير ديلين ) تتميز بميله الواضح الى الجانب الشمالي لتفهمه ،موقف حكومة لنكولن وتعاطفه مع سياستهـا ، الا ان التحليلات الصائبة لاشهر مراسل في اسرتها التحريرية لم تزحزح التايمز قيد أنملة عن تأييدها للجنوب ، فبقيت ثابتة على موقفها الى ان اندحر وانتهـى الانفصال ، ولم يثبط في عزمها ان عداءها للشمال ادى الـى ان يصبح مراسلها فيه اكره شخصية اجنبية في الولايات المتحدة ، او انه مرارا كاد يتعرض الى الاعتداء عليه ، علاوة على ان الصحف الامريكية ( الويل لمن تعاديه ) ظلت تهاجمه طوال سني الحرب ، غير آبهة ببراعته من موقف صحيفته بل وحتى مخالفته اياها في الاتجاه .

اما المثال الاخر فهو اقرب الى عهدنا ، وهو ايضا يكوّن فصلا من التاريخ المخجـل لاكبر صحيفة بريطانية . ففي الثلاثينات انتمت التايمز الى الفئة من البريطانيين التي فضلت ان تسترضي هتلر على حساب تشيكوسلوفاكيا . ومع ان مراسلها الحربي آنذاك ، ليدل هارت ، الخبير العسكري المشهور ، ظل يكرر على رئيس التحرير مغبة هذه السياسة من الناحيـة العسكرية بحكم منصبـه كمستشار الصحيفة في شؤون الحرب ، وحاول ان يبرهن على صواب رأيه بالدراسات التي أعدها للنشر ، الا ان التايمز لم تأبه لاعتراضاته التي دفعته الى تقديم استقالته من أسرتها التحريرية ، بل انها رفضت حتى ان تنشر بعض مقالاته لان هذه الكتابات كانت تتعارض مع الخط الذي التزمت به : خط الاسترضاء والميوعة حيال هتلر وموسوليني .

بقي سؤال نهائي هو : لماذا غضبت الصهيونية على مايكل ادمز فاضطهدته ولاحقته ، بينما أهملت مهاجمة ديفيد هيرست وغافن يونغ وغيرهما مـن المراسلين المنصفين ؟ والجواب على ذلك ان كتابات ادمز كانت قد اكتسبت صبغة الحملة الصليبية ضد اسرائيل ، فالرجل كان حقا قد اثارته ما رآه في الارض المحتلة من اعمال بربرية قامت بها سلطات الاحتلال كتدمير البيوت ومحو القرى من اساسها ، فأغاظت نبرة الغضب التي لاحت في لهجته انصار اسرائيل ، وكانت النتيجة انه فصل من منصبه وطورد . اما ديفيـد هيرست ، فمع انه أنصف المقاومة الفلسطينية ولم يشوه أهدافها ، الا انه في الوقت نفسه ظل في تلك « المساحة » وحافظ على الهدوء في نبرة صوته ، ولم يتعرض لاسرائيل بنوع النقد الذي تخشاه .

ان حادثة مايكل ادمز هـي باختصار ، مأسـاة الصحافة الغربية .